# علم الأدب المقارن وتجاوز المقارنة إلى اللامقارنة

أ(ة). ويزة غربي

جامعة البليدة 2 – الجزائر

## ملخّص

عرف الأدب المقارن في القرن الواحد والعشرين تطورا بفضل انفتاحه على آداب مختلف الأمم، من حيث مجاله ومن حيث منهجه، خاصة بعد انتهاء مرحلة الانغلاق على الذّات والتقوقع داخل القومي، وهو ما فسح المجال أمامه واسعا لمراجعة أدواته المنهجية، باعتباره تخصّصا مرنا يطوِّر من آلياته الإجرائية باستمرار، بحثا عن بدائل منهجية جديدة تواكب التطور المعرفي في هذا القرن، حيث تجاوز البحث عن التماثل بين الآداب، التي تعكس فكرا مركزيا غربيا يحتفي بفكرة النموذج الواجب محاكاته، وأصبح يدعو إلى مقارنة تنظر إلى الآداب التي تنتجها الأمم على قدم المساواة، خاصة بعد تراجع مبدأ التأثير والتأثر القائم على التفاضل بين الآداب، فاتسع بذلك من حيث مجاله أيضا.

**الكلمات المفتاحية:** التأثير والتأثر، المقارنة، القومية، التوازي، الإثراء المنهجي، التفاضل.

## Abstract:

Comparative literature has known an important development in the 21st century in terms of its field and methodology because of being open to the world wide literature, especially after the end of the stage of closure on itself and inside the local literature. This gave it the opportunity to review its methodological tools as a flexible specialization that developed its procedural mechanisms constantly in search for new methodological alternatives that accompany the development of knowledge in this century. Now the search overtakes similarities between literatures which reflect a central occidental thinking, which is interested in the idea of imitating a unique sample, and is calling for a comparison that looks to the other literatures on an equality, especially after the decline of the principle of influencing and being influenced based on differentiation between literatures

**Key words**: Influence, comparison, Nationalism , Parallelism, Systematic enrichment, differentiation.



المنارة للاستشارات

**مقدمة:**

عرف الأدب المقارن نوعا من المفارقة في مساره التّاريخي، حيث سعى إلى تحقيق استقلاله عن بعض المجالات المعرفية، التي ارتبط بها في بداية ظهوره، كالتاريخ ونظرية الأدب وتاريخ الأدب، حتى يتأسس كعلم مستقل بذاته، خاصة وأنه قد عانى منذ نشأته؛ من صعوبة حصر موضوعاته ومن تحديد منهجه، ولكن استقلاليته لم تدم طويلا؛ إذ بدأ يتواصل مع بعض الحقول المعرفية المجاورة له بغرض الإثراء المنهجي، وفك العزلة التي ضربتها حوله الفلسفة الوضعية، التي بدأت تتراجع، فاسحة له المجال للتفاعل مع ثقافات الأمم المختلفة، وقد عرف بفضل هذا التواشج توسّعا من حيث **مجاله**، وإثراء من حيث **منهجه**، مما يدفع إلى طرح السؤال التالي: **ما هي أهم تحولات الأدب المقارن المنهجية، وكيف استطاع تجاوز فعل المقارنة إلى اللامقارنة ؟**

إن الإجابة على هذا السؤال تستدعي تتبع التحولات التي عرفها الأدب المقارن من حيث المجال، الذي توسَّع كثيرا بهدف الخروج من الضيق الذي وضعته فيه المدرسة الفرنسية، ويتلاقح مع ثقافات العالم خاصة بعد خروج العديد من الدوّل من عزلتها السياسية والثقافية، إلى عالم أكثر تفتحا وتقبلا للآخر، حيث الاهتمام بالمغاير والمختلف من آداب الأمم المختلفة، متخليا عن مبدأ القومية وما يضمره من فكر متمركز حول الذّات الأوروبية، التي تعتمد المقارنة بين الآداب في إطار ضيّق جدا، وأمّا من حيث المنهج؛ فقد بدأ توجّه الأدب المقارن نحو بعض

المعارف القريبة منه، من أجل التَحَاقُل معها أهمّها النّقد، تحليل الخطاب، ودراسات التوازي.

## المبحث الأوّل: تطور الأدب المقارن من حيث المجال

عرف مجال الدراسات المقارنة تطورا مستمرا، فبعد ما كان محصورا في أدبين قوميين فقط عند المدرسة الفرنسية، انتقلت المقارنة لتشمل آدابا قومية متعددة، ثمّ تخطّتها إلى حيّز أوسع تكون فيه المقارنة مع مجالات المعرفة الإنسانية، كعلم النفس وعلم الاجتماع. وقد حصرت المدرسة الفرنسية التقليدية الأدب المقارن في إطار ضيق، بسبب قيامها على مبدأ التأثير والتأثر، الذي يفترض تفوّق المؤثر على المتأثر، مؤكدة على توجهها القومي دون الاهتمام بمساهمة الحضارات الإنسانية في بنائه، ولكن بدأت تظهر بعض الأصوات من المدرسة الفرنسية، مثل **روني إيتيامبل** ( René Étiemble) (1909-2002) الذي طالب بـ"شعرية مقارنة"، لا تكتفي بتتبع الوقائع التاريخية وتقترب أكثر من النّقد، كما وجّه دعوة للمقارنين الفرنسيين إلى الخروج من الإطار القومي الضيّق، إلى الاتصال بأدب الأمم الأخرى.

### 1- تراجع الأدب المقارن عن مبدأ القومية:

إنّ حصر الأدب المقارن في إطار القومية الواحدة، التي تُكرّس مفهوم المركزية الأوروبية، دفع بعض روّاد المدرسة الفرنسية إلى المطالبة بالتّخلي عن هذه الصرامة في التعامل مع الدراسة المقارنة للأدب، وتجاوز هذا النّمط من



المنارة للاستشارات

المقارنات القائمة على مبدأ التفاضل بين الآداب، وقد كان هذا هدف بعض المقارنين الفرنسيين الذين تضافرت جهودهم من أجل "تحرير الأدب المقارن من النزعة الأوروبية المركزية، والبحث عن امتداداته خارج أوروبا يكون الهدف منها شعرية مقارنة"[1] وهو حلم ازداد تمسك المقارنين به في القرن العشرين، الذي عرف مستجدات على الصعيد العالمي، حيث زالت الإمبراطوريات الاستعمارية فاسحة المجال لعالم يؤمن بالمثاقفة، كأهم وسيلة لبناء الحضارة المتوازية والمتوازنة، على أساس الاعتراف بالآخر انطلاقا من مبدأ مضمونه لا إدراك للذات إلا في إدراك الآخر وثقافته" وهذا النوع من المفاهيم – التي أصبحت عمليا بمثابة تقييدات للفكر– نابع من واقع إنساني، أصبح فيه الوعي بالآخر هو شرط اكتمال الوعي بالذات"[2] في واقع لا مجال فيه لإقصاء الآخر بحجة أنّه مختلف.

**2– انفتاح الأدب المقارن على ثقافات العالم:**

اتّجه الأدب المقارن إلى الاهتمام بثقافات الشعوب والتلاقح معها، بعد خروجها من دائرة التهميش، هو ما ركّز عليه الدرس المقارن في القرن العشرين، خلافا للأدب المقارن التقليدي في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، الذي ركّز على مظاهر تفوّق الأدب الغربي على الآداب الأخرى، بحيث كانت الدراسة المقارنة

---

[1] الأحمد نهلة فيصل، التفاعل النصّي التناصية النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2010، ص 216.

[2] سعيد بن أراق، الأدب المقارن في ظل تحليل الخطاب النقدي، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان، ط1، 2015، ص206،207.

بين الآداب تقوم على أساس علاقة غير متكافئة، يُذعِن فيها الأدب التّابع إلى الأدب المتبوع، وهذا يتنافى مع دور الأدب المقارن الأساس، المتمثل في "التقريب بين الشعوب وخدمة الثقافة الإنسانية دون خلفيات أثنية أو جغرافية... ولكنّه هدف لم يتسن له التحقيق كاملا، لأن الوجهة التي اتخذتها الدراسات المقارنة فيما بعد، ابتعدت عن الأهداف الأولى التي ظهر من أجلها"[1] لقد كانت نزعة التمركّز الغربيّة حول الذّات القائمة على منظور أحادي، أكبر تحدٍ واجهه الأدب المقارن، بسبب إقصاء هذه النزعة المتعارضة مع روح الدراسات المقارنة، إسهام شعوب العالم في بنائه، مما دفع المقارنين الفرنسيين المنشقّين عن المدرسة الفرنسية التقليدية، إلى التفكير في إيجاد بدائل أخرى تثريه منهجيا، وتؤسس لمرحلة جديدة من مراحل تطوّره " فقد بدأت الشواهد تترى مُؤكدة أن ثمّة تحوّلات نظرية، وتفريعات منهجية وحقلية قد تَعني انحلال الأدب المقارن في حقول جديدة"[2] فبدأت المدرسة الفرنسية التقليدية تعرف بعض التحوُّلات، خاصة "بعد النّقد الخارجي الذي تلقاه الاتجاه التاريخي التقليدي في أمريكا، ثم النّقد الداخلي الذي

---

[1] سليم حيولة، من الأدب المقارن إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية، مجلة الآداب واللغات جامعة البليدة 2، دار التل للطباعة، الجزائر، ع/8، 2014، ص 128، 129.

[2] الرويلي ميجان، البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط5، 2007، ص 32.



المنارة للاستشارات

كتبه **إيتيامبل** في فرنسا، غيَّر هذا الاتجاه رؤاه وطوَّر مفاهيمه تطورا واضحا"[1] فبدأت بوادر الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى تظهر، خاصة بعد أن رسم له **روني إيتيامبل** حدودا أكثر اتساعا، حيث طالب بانفتاحه على آداب العالم المتعددة والمتنوعة، وقد لاقت دعوته إلى التخلي عن صرامة المدرسة التاريخية وتبني تقنية التوازي، استجابة عند بعض المقارنين الفرنسيين المتأخرين، الذين شَكَّلوا خروجا على تقاليد المدرسة الفرنسية التقليدية العريقة، وحاولوا التحلل من الالتزام بمبادئها الصارمة، فطالبوا بعدم الاكتفاء بمبدأ التأثير والتأثر، الذي لم يعد يناسب فلسفة القرن العشرين، بعد انتقال العالم من صراع الحضارات، إلى تحاورها والتفاعل بينها، على أساس من الندّية والمساواة. إنّ هذا التحوُّل في الأنموذج؛ يستدعي تحول الدّراسات المقارنة بما يناسب هذا السياق التاريخي الجديد، خاصة بعد تراجع المد الاستعماري، وفي ظل هذا التوسع الذي عرفه الأدب المقارن، باتجاهه نحو مقارنات بين الآداب بلغات بلدان لا تنتمي إلى المركزية الأوروبية. قام **رونيه إيتيامبل** بثورة ضد هذه المركزية، مطالباً بقراءة الآداب الأخرى تأكيد على التعامل مع الثقافات المهمّشة، في إطار التواصل العالمي والإفادة من جميع ثقافات العالم، من أجل إثراء الفكر الإنساني. لقد كان لهذه التحولات الخارجية التي عرفها الأدب المقارن، تأثيرها عليه من الناحية المنهجية.

---

[1] جلالي بومدين، النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، دار الحمراء، الجزائر، ط1، 2012، ص17.

## المبحث الثاني: توسُّع الأدب المقارن من حيث المنهج

تَطوَّر الأدب المقارن في النّصف الثاني من القرن العشرين، حيث أكتسب مرونة منهجية، في مرحلة بدأت فيها "الحقول بوجه عام تتوجّه نحو...تجديد آليات اشتغالها، وتنحو باتجاه إعادة ترتيب علاقاتها بباقي الحقول المتاخمة لها، أو المتقاطعة معها أو حتى البعيدة عنها" [1] إذ عرف الأدب المقارن خروجه من مرحلة المقارنة إلى مرحلة اللاّمقارنة، والاقتراب أكثر من بعض المجالات المعرفية منها النقد الأدبي تحليل الخطاب،.

بدأ الأدب المقارن يشهد تداخلا مع بعض المعارف والعلوم، من أجل إثراء منهجه، إذ يجب أن يشمل تطور الأدب المقارن في القرن العشرين جانبه المنهجي، الذي مازال يطرح إشكالا في الدراسة المقارنة "أولا لأهمية المنهج، وثانيا لأن النتائج المتوصل إليها سوف لن تكون حاسمة إذا لم ترافقها صرامة منهجية تحدد المسار والمناهج"[2] فكان من الطبيعي أن يشهد الدرس المقارن تبعا لذلك تطورا من ناحية المنهج، بترسيخ تقاليد درس منفتح على بعض فروع المعرفة الإنسانية، ليستفيد من بعض مبادئها، أهمها النقد الأدبي الذي يولي أهمية للجوانب الجمالية التي أهملتها الدّراسات التاريخية، وأقصتها من مضمار الدراسات المقارنة،

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص7.

[2] سليم حيولة، إشكالية المنهج في الدراسات الأدبية المقارنة، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2،ع 19، نوفمبر 2009، ص 222.



المنارة للاستشارات

إن مهمة الأدب المقارن الجوهرية؛ المتمثلة في التقريب بين آداب وثقافات الشعوب، المنظور إليها على أساس التساوي وليس على أساس التفاضل، الذي يعكس علاقة تراتبية تفاضلية بين أدب تابع ضعيف، تربطه علاقة التبعية بأدب رفيع وجبت عليه محاكاته حتى يرقى إلى مستواه.

**1-تراجع الفلسفة الوضعية وظهور دراسات التوازي:**

إنّ تجاهل الأدب المقارن للمناهج النقدية الجديدة، بسبب ارتباطه بالفلسفة الوضعية والنظرية العلميّة القائمة على مبدأ السّببية، أبعده كثيرا عن التواشج مع الكثير من البدائل المنهجية التي كان بإمكانها أن تثريه منهجيا، لذلك سعى المقارنون على اختلاف توجّهاتهم، إلى البحث عن حلول إجرائية تَقِي الدّرس المقارن من أزمات جديدة تُهدّد وجوده، فسعوا إلى تحصينه من خطر الزوال، عبر بناء نظرية تتجاوز مبدأ التأثير والتأثر، وتتواصل أكثر من العلوم الأخرى "فحين اتسعت فضاءات هذا الأدب، اتّسعت منهاجياته وتنوّعت أدواته... خرج هذا العلم إلى الآفاق الإنسانية"[1] ولامس البعد العالمي الإنساني، هو أهم ما سعى الأدب المقارن إلى تحقيقه في القرن العشرين.

لقد أدت هذه التطورات التي شهدها الأدب المقارن في القرن العشرين، إلى إثرائه منهجيا بعد أن أثبت مبدأ التأثير والتأثر، قصورا في تأطير الدّراسات المقارنة

[1] العظمة نذير، فضاءات الأدب المقارن، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربيّة السّورية، (د ط) 2004، ص 11.

بسبب تراجع الفلسفة الوضعية، فظهر التوازي (parallelisme) كتقنية استعانت بها المدارس المقارنية على اختلاف مشاربها، وتلوَّنت بتلاوينها بحسب مرجعياتها الفكرية والفلسفية، فهو عند المدرسة الفرنسيّة **توازي ثقافي**، وعند المدرسة الأمريكية **توازي نصِّي**، وعند المدرسة النّمطية **توازي تاريخي** يقوم على " مبدأ التيبولوجية التّاريخية الذي اقترحه " جيرومونسكي" في البحوث المتعلّقة بالتاريخ المقارن للأدب...لأنه يوفّر أساسا يصلح في معاينة التشابهات والاختلافات التاريخية والاجتماعية "[1].

لقد شهد الدرس المقارن الفرنسي تطورا ملحوظا في القرن العشرين، حيث عرف الانطلاقة الحقيقية نحو استثمار بعض البدائل المنهجية كتقنية التوازي، بإخراج الآداب إلى رحابة الثقافات العالمية، والمساهمة في التقريب بين الشعوب، وخدمة الثقافة الإنسانية انطلاقا من طبيعته الإنسانية، خاصة مع انضمام مقارنين آخرين من جنسيات أخرى، مثل الأمريكي **هنري ريماك** (Henri Remak) (1916،2009) والإيطالي **أدريان مارينو**(Adrian Marino) (1921-2005) وغيرهم من المقارنين، الذين عملوا على أن ينفتح الأدب المقارن، على ثقافات الشعوب الأخرى كالعربية والإفريقية والهندية... وطالبوا أن تكون المقارنة تناظرية، من خلال التقريب بين الثقافات، وإعادة التوازن إلى العلاقات الثقافية بين الحضارات، وقد تجسّد هذا التّوجه على المستوى التطبيقي، في تبني المدرسة

[1] ماريا ريف، استقبال العمل الأدبي من وجهة النظر الاجتماعية، الاختلافات والتشابهات، (تر) عبد القادر بوزيدة، مجلة معالم، الجزائر، ع5/السداسي الثاني،2011، ص124.



المنارة للاستشارات

الفرنسية، في مرحلة متأخرة من مراحل تطورها "دراسات التوازي" في مقارناتها بين لآداب، كما تبنّته كذلك المدرسة الأمريكية النّقدية كرد فعل على المنهج التاريخي، في إطار كسر الهيمنة الأوروبية وإعادة الاعتبار لمختلف الآداب، كما تبنَّته المدرسة النّمطية بتوجهاتها الإنسانية، وأطلقت عليه مصطلح " **التوازي التاريخي**" (parallelisme historique).

لقد جاءت دراسات التوازي تجسيدا للنزعة الإنسانية، التي تميّز بها الأدب المقارن في القرن العشرين، عند المقارنين الفرنسيين المتأخرين، والأمريكيين، ومقارني دول أوروبا الشرقية، وأصبحت هذه النزعة حاضرة "في مجال الأدب المقارن باعتبارها عاملا من عوامل تسويغ مشروعية قيام الأدب المقارن...فأصبح الخطاب المقارني يتغذى فعلا – على المستوى المرجعي والنظري– من النزعة الإنسانية " [1] وليس المقصود هنا النزعة الإنسانية بمفهومها التاريخي[*] الذي انتشر في القرن السادس عشر، المرتبط بدراسة النصوص الإغريقية واليونانية القديمة، التي تعتبر الإنسان مركزا الكون، ولكن مفهومها في الأدب المقارن يتعلق "بنزعة جديدة بالمقارنة مع النزعة الإنسانية السّابقة... بتحقيق عالم إنساني قائم

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع السّابق، ص 152.

[*] سادت هذه النزعة بعودة رجال الأدب إلى نظرية المحاكاة عند اليونان واللّاتين، الذين أعجبوا بما للإنسان من قيمة في نصوص أفلاطون وأرسطو وهوميروس، لما في أدبهم من نزعة إنسانية. وهي تختلف كذلك عن النزعة الإنسانية الرومانسية التي سادت في القرن الثامن عشر.

على قيم الحريّة والانفتاح والكرامة الإنسانية"[1] وهو المعنى الجديد الذي يتعارض مع مرتكزات المركزيّة الأوروبيّة في القرن التاسع عشر، الذي يتعامل مع النصوص الأدبية بالنظر إلى أصولها الإنسانية المشتركة، فأصبح يُعطي اهتماما أكبر للتفاعل الثقافي والأدبي بين الآداب الإنسانية، بغض النظر عن اختلاف اللّغات والقوميات، بما يرسم حدودا أكثر اتساعًا وانفتاحا للأدب المقارن؛ تجعل من دراسات التأثير تتراجع كثيرا بعد رصد هذا التواصل بين الآداب العالمية، إذ يدفع هذا التفاعل إلى الخروج من هيمنة النموذج الغربي المتعالي، باتجاه البحث عن مقارنات مع آداب تخرج عن دائرة المركزية الأوروبية، حيث يتم التفاعل المتوازن، الذي يضمن هامشا من المساواة بين الآداب المقارَنة بعد أن تغذّى "مرجعيا من نزعة إنسانية، وتَوَجَّه بفعل هذه النزعة نحو التعامل مع الأدب بوصفه مجال اشتغال المشترك الإنساني"[2] لذلك اهتمّ المقارنون بالبحث عن المشترك بين الآداب، بهدف بناء نظرية مقارنية تنظر إلى الآداب نظرة متوازية ومتوازنة.

**2- دراسات التوازي الثقافي كبديل عن المقارنة التفاضلية:**

ظهرت دعوة المقارنين الفرنسيين إلى تجاوز دراسات التأثير والتأثر، فتوجّه بعض المناصرين لدعوة **روني إيتيامبل** الذين رفضوا تمسك المدرسة الفرنسية بالتاريخ، واستبعادها للنقد "يَنْظرون شَزَرا إلى الدراسات التي تقوم بالكشف عن

---

[1] سعيد أراق بن محمد، المرجع السّابق، ص 150.

[2] سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 94.



المنارة للاستشارات

أوجه التقابل والتشابه"[1] التي ركّزت المدرسة الفرنسية على استنباطها في دراستها المقارنة بين الآداب المختلفة، والتي ما فتئ الأدب المقارن عبر مساره التاريخي يضع لها التبريرات المقنعة من أجل تفسيرها، فإذا كانت المدرسة الفرنسية تُرجعها إلى التأثير والتأثر، من مُنطلق تفاضلي بين الآداب " وهي بذلك تُعد تأكيدا لمركزية الثقافة المانحة، وتماهيا للثقافة الآخذة "[2] فإن توجهات أخرى كانت أقل صرامة منها، أقامته على أسس أكثر مرونة، فظهرت إثر ذلك عدة اتجاهات حاولت وضع تفسير لظاهرة التشابه والاختلاف بين الآداب، فجاءت دراسات **التوازي الثقافي** عند المدرسة، وجاءت المدرسة النمطية بالتوازي **التاريخي**، الذي يرتبط بـ" تقاليد مدرسة (فيسيلوفسكي) في مجال الفلكلور المقارن في القرن التاسع عشر. الذي قام بجمع مادة ضخمة من فولكور أمم عديدة، وقام بتحليلها، حيث لاحظ تشابهًا واضحًا في التشكيلات الفنية– الفكرية لدى الشعوب التي تمر بأطوار اجتماعية– تاريخية متقاربة، وهو ما أفضى إلى طرح نظرية "التوازي التاريخي" التي ترفض القول بالتأثير المباشر"[3] الذي يحمل تبعية اللاّحق للسابق، في حين يقوم مفهوم التوازي على مبدأ التقابل بين الآداب، الذي يستدعي النِّدِية، فتصبح

---

[1] الأحمد نهلة فيصل، المرجع السّابق، ص 201.

[2] وائل سيّد عبد الرحيم، تلقي البنوية في النقد الغربي، نقد السرديات نموذجا، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 10،11.

[3] صلاح السروى، الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، على الرابط: http://masreiat.com، بتاريخ: 19:13 11/16/2016.

هذه القراءة متجاوزة " حدود النص في جانبه الفيلولوجي، لترتكز على بعده المتعدد الثقافات"[1] فيتحقق للأدب المقارن بعده العالمي انطلاقا من الاهتمام بالمشترك الإنساني وبالتالي يستعيد توازنه.

### 3- خروج الأدب المقارن من المقارنة الثنائية إلى علم المقارنة:

أصبح دور الباحث في المقارنة الوضعية مقتصرا على "التقريب بين مُؤَلِفين أو مُؤَلَفين بشرط الوصول إلى علاقات فعلية بينهما، فلا بدّ له من دليل على ذلك، يُجهد نفسه من أجل إثباته"[2] وقد أصبح هذا التوجّه الذي يُلخّص دور الأدب المقارن في البحث عن الشواهد التاريخية التي تُثبت العلاقات الفعلية بين الآداب، مستهجنا حتى عند المقارنين الفرنسيين الذين اعتبروا أن " الشيء الأساس هو روح الانفتاح على الآداب والثقافات الأجنبية "[3] بدل الانغلاق على الذات، وقد تعرّضت لأجل ذلك المدرسة التاريخية التقليدية "التي استمرت سيطرتها كاتجاه

---

[1] فرانسيس كلودون، كارين حداد فولتنغ، الوجيز في الأدب المقارن، نظريات ومناهج المقاربة المقارنية، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة، 2002، الجزائر، ص 67.

[2] Jean-Louis Backès, Le spectre de plutarque, Revue de littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck ,2001,2.htm.: http://www.cairn.info

[3] هنري- باجو دانييل، الأدب العام والأدب المقارن، (تر) غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط)(د.ت)ص 11.



المنارة للاستشارات

وحيد في الأدب المقارن إلى غاية أواسط القرن العشرين"[1] للتجاوز من طرف أبنائها الذين تمردوا على مبادئها، ومنهم **دانييل هنري باجو**( Daniel-Henri Pageaux) (1939)، وهو من الرّواد الأوائل الذين رفضوا المفهوم البسيط للمقارنة، إذ طرح سؤالا على المقارنين بقوله: " وأنتم أيها المقارنون، ماذا تقارنون؟"[2] وينعته بالسؤال الساذج، وقد جاء في سياق إنكار اقتصار دراسات المقارنين الفرنسيين، على بيان أصالة الأعمال الأدبية فقط، ويرفض أن تكون المقارنة هي الهدف الوحيد للأدب المقارن، بل التواصل مع الآخر وتغيير نظرة الاحتقار والدونية إليه، والتعامل معه على أساس من الندية. لقد فرض هذا الوضع الجديد" على المقارنين الفرنسيين استبدال الدراسة المقارنة التي تركز على التشابهات والاختلافات، بالاهتمام بالبعد الأجنبي في النص الأدبي في ثقافة معينة"[3] وهو الموقف نفسه الذي اتخذه **إيف شوفرال** (yves chevrel) الذي يدعو المقارنين " إلى الاهتمام بالآثار القادمة من مكان آخر (ailleurs) والمرتحلة

---

[1] درويش أحمد، نظرية الأدب المقارن، تجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002، ص 27.

[2] هنري- باجو دانييل، المرجع السّابق، ص9.

[3] Daniel-Henri Pageaux, littérature comparee et comparaison, poetica.org/sflgc/biblio/comparaisons.htm. http://www Date de publication: 15/09/2005.

إلى مكان آخر والمتحدِّثة عن مكان آخر..."[1] ويستبعد أن تكون مجرّد المقارنة بين الأعمال الأدبية هي غاية الأدب المقارن، إذ يعتبره "أفقا ومنظورا (perspective).. لا يتلخّص في المقارنة الأدبية، ولا بالأحرى في ممارسة الموازاة (كورناي/ راسين...)"[2] فليس المقصود منه إجراء مقارنات بين الآداب، واستخراج أوجه التشابه والاختلاف، بقدر ما يُقصد به مساءلة بعض الأعمال الأدبية من ثقافات أخرى، على أساس من التكافؤ مع الثقافة الغربية، مما يُساهم في تجسيد " مفهوم فوق قومي(trans-national) للأدب ... ولكنه لا يُشيَّد على دراسة "العلاقات الفعلية"[3] فالانفتاح على الآخر يُسهّل تبادل الأفكار التي تنطلق من فهم الذات، فكلما استطاع الإنسان أنْ يدرك ذاته كان أكثر قدرة على إدراك وفهم الآخر وبالتالي قبوله، فيتحقق الانسجام والتكامل بين المجتمعات، لأنّ المعرفة الإنسانية تراكمية يستحيل بناؤها بالقدرات الفردية فقط، فلا يمكن للأدب المقارن أن يستمر ويستقر بانغلاقه على نفسه، مادام البعد العالمي يدخل ضمن أهم أهدافه، ليصبح الوعي بالآخر وسيلة لإدراك الذات المنفتحة على حدود الآخر، ويؤكد **إيف شوفرال** على الوظيفة الحقيقية للمقارنين الذين ينعتهم بـ"خارقي الحدود، الذين يُقيمون جسورا بين ضفاف كانت تتجاهل بعضها من قديم،... إن

---

[1] شوفرال إيف، الأدب المقارن، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017، ص11.

[2] شوفرال إيف، المرجع السّابق، ص13.

[3] شوفرال إيف، المرجع نفسه، ص15.



المنارة للاستشارات

إقامة الجسور يعني المخاطرة بتغيير المَشَاهد التي تعودنا عليها: إن ممارسة المقارنة لا تقوم من دون إعادة النظر في الأفكار المتوارثة والقناعات الضيقة "[1] فلا بد من إعادة بناء المشهد المقارني الفرنسي، بانتهاج موقف أكثر ليونة ومجال أكثر اتساعا، ومد الجّسور إلى آداب كانت مجهولة والتفاعل معها، وسيُحدث هذا خلخلة في قناعات المقارنين الفرنسيين، المتمسكين بأفكارهم القديمة الرّاسخة التي رسمت حدودا ضيقة للأدب المقارن.

وفي نفس التوجه الرامي إلى فكّ الحصار المضروب من طرف المدرسة التاريخية الفرنسية على الأدب المقارن، دعا **فرانسيس كلودون** (Francis Claudon) (1980) و**كارين فولتنغ حداد** (Caren Wolting Hadad) في كتابيهما "الوجيز في الأدب المقارن" إلى الخروج من المقارنة الثنائية بمفهومها البسيط، إلى **علم المقارنة** الذي نصل إليه، بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل عناصر غير متجانسة، "إن هذا الشرط ضروري لكي نرتقي من المقارنة إلى المقارنية (علم المقارنة) لكن...لماذا لا نقابل، لا نقارن بين **بومبي** و**حنبعل** أو بين الفرس والأثينيين؟ ربما يكون في هذا شيء يشبه معاداة التقاليد المترسخة، أو معاداة ما هو طبيعي...بالإضافة إلى كون مقارنة المقارني يجب ألا تظل حبيسة الأحادية القومية، تُطرح هنا مسألة التمييز بين مقارنية عقيمة ومقارنية خصبة"[2] لقد رفض المؤلفان المقارنات والمقابلات الثنائية بين الآداب، واعتبراها مقارنة عقيمة لأنّها

---

[1] شوفرال إيف، المرجع السّابق، ص149.

[2] كلودون فرانسيس، حداد كارين فولتنغ، المرجع السّابق، ص17،18.

كانت تقام بين أدبين قوميين لا غير، كما ينص عليه التقليد الفرنسي المتوارث، ويدعوان إلى مقارنية خصبة بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل آداباً قومية متعددة، لأن العلاقات الأدبية بطبيعتها لا تقف عند هذه العتبة الثنائية المحدودة، إنها دعوة إلى تجاوز المُؤتلِف، والبحث في المُختلِف [*] غير المتجانس، فأصبحت المقارنة تتجاوز حدود اللّغات والثقافات، فلقد " حان الوقت أن تتجاوز المقَارَنة ما كان يمكن المُقَارَنَة (comparable) بينهما (راسين وكورناي/ فولتير وروسو) إلى مالا يمكن أن يكون محلا للمقارنة (l incomparable) (بروست وجايمس/ سارتر ودوص باصوص) فكلما اختفت العلاقة الفعلية بينها، يأخذ التوازي مكانه في فعل المقارنة "[1] وهذه دعوة صريحة إلى المقارنة بين عناصر غير متجانسة قد تنعدم بينها نقاط التقاطع، خاصة بين الآداب التي لا تظهر إمكانية الاتصال والتأثر بينها ممكنة، وهو موقف يقترب من المدرسة الأمريكية، في دعوتها إلى عدم الاقتصار على مقارنة المتجانس، بل يمكن أن تخرج عن هذا لتشمل اللامتجانس كذلك، هنا تأتي دراسات التوازي كتوجّه جديد يمكن أن يثري الدراسات المقارنة.

**4- كتاب" علم الأدب المقارن" و عبور الأدب المقارن إلى علم الاجتماع:**

يؤسس كتاب **بيير تسيما** "علم الأدب المقارن" [*] لعبور الدراسة المقارنة المعاصرة، إلى مجال علم الاجتماع، إذ يقول واصفا لهذه المهمّة الصّعبة" لقد أقدمت على هذا وأنا على علم بما في ذلك من صعوبة ومشقّة، فالمؤلّف لا يتناول

1) Pierre Brunel, Daniel-Henri Pageaux, Avant-propos, Revue de la littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck.



المنارة للاستشارات

الأدب المقارن كعلم قائم بذاته، وإنما يتناوله في إطار العلوم الاجتماعية عامة. "[1] ويَعرض **أبو العيد دودو** في البداية العناصر التي تناولها "بيير تسيما" في كتابه، حتى يُسهّل اطلاع القارئ على محتوياته، ومن بين ماجاء فيه حديثه عن علاقة الأدب المقارن بالعلوم الاجتماعية، وهو من أهم العناصر الواردة في هذا الكتاب، الذي يؤكّد رغبة "بيير تسيما" في:

تأسيس نظرية نقدية للأدب المقارن، إذ يرى أنه لابدّ من" وضع نظريته النقدية الخاصة به"[2] وهنا يظهر توجهه نحو المدرسة الأمريكية، مما يجعل منهجه مزدوجا يجمع بين تاريخية النصوص وجمالياتها.

إرساء مفهوم جديد للأدب المقارن يختلف عمَّا"عرَّفه به **فان تيغم**، ويرتبط هذا المفهوم الجديد " بالأدوات النّظرية والمنهجيّة التي يستعملها الباحث في القيام بدراسة مقارنة" [3] وفي هذا الطرح تركيز على الجانب التطبيقي القائم على استعمال أدوات جديدة، لم يستعملها الأدب المقارن من قبل منها "علم الاجتماع

---

(*) العمل الذي قام به أبو العيد دودو، هو عبارة عن ملخّص مترجم من اللّغة الألمانية إلى اللّغة العربية، لأهم محاور كتاب"بيير فاليري تسيما" "علم الأدب المقارن" (Komparatistik)، يطرح فيه بعض التساؤلات حول الأدب المقارن أهمها: كيف يمكن أن تُستَغل المناقشات المنهجية التي تمَّت في الستينات والسبعينات والثمانينات لفائدة الأدب المقارن، وما هي البدايات المستمدة من علم الدلالة وعلم الاجتماع وعلم الإنسان وعلم النفس التي يمكن أن تساعد في تمتين ركائز هذا العلم؟ أي الأدب المقارن.

[1] أبو العيد دودو، مرجع سابق، ص33.

[3] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص 34.

الأدبي، وعلم النفس الأدبي، والنظريات الدّلالية والمنهجية واللّسانية النصية،...مما قد يؤدي إلى ظهور مفاهيم مختلفة في الأدب المقارن"[1] ويكشف هذا النص عن تَوجُّه الأدب المقارن إلى اختصاصات جديدة لم يتعامل معها الأدب المقارن من قبل.

الدعوة إلى وضع الأعمال المتشابهة في سياقها العالمي، "لأن الخصائص الأدبية لا تظهر إلا بالمقارنة...ولكن هذا لا يعني إنكار أهمية الأدب القومي وأثره، فهناك أعمال لا تُفهم إلا في إطار التقاليد القومية"[2] فالأعمال الأدبية التي تُظهر تناظرا بينها، تُدرَس في سياقها العالمي دون إنكار بعدها القومي.

**5- موقف "بيير زيما" التوفيقي في بناء نظرية مقارنة:**

إن انتماء **بيير زيما** إلى المدرسة الاجتماعية، لم يمنعه من تبني موقف توفيقي بين المدرسة الفرنسية التي منعتها النزعة الوضعية من الاهتمام بالجانب الاجتماعي، والمدرسة الأمريكية التي انشغلت بالبعد الجمالي في النص عن بُعهده الاجتماعي، ويتجسَّد موقفه التوفيقي على مستوى التطبيق في الأخذ بالمقارنة النّمطية، والمقارنة التّكوينية، لقد أراد أن يُقّدم للقارئ صورة مختلفة عن الأدب المقارن في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد إعادة صياغته وفق منظور اجتماعي، طالما أهملته الدراسات المقارنة الوضعية والجمالية، ورغم اعتراض

---

[1] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص 34.

[2] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص 36.



المنارة للاستشارات

**تسيما** على موقف **روني ويلك** (Rene Welleck) الرّافض للمنهج الاجتماعي والنفسي، الذي يقضي في رأيه على" الاستقلالية الجمالية للفنون ويحوِّل الأدب إلى وثيقة اجتماعية ونفسية"[1] يرى **زيما** أن الخطأ الذي ارتكبه "ويلك" يتمثل في إبعاد الأدب المقارن عن العلوم الاجتماعية. كما انتقد المدرسة الوضعية " التي تهتم بالصلات والتأثيرات، ولكنها لا تتساءل عن السبب في حدوث تلك الصلات والتأثيرات، فما من تفسير يتم خارج إطار السيّاق التاريخي"[2] ويضرب لذلك مثلا بالتشابه الواقع بين الرّواية الألمانية، والرّواية الفرنسيّة في القرن الثالث عشر "ذلك أن الظروف المشابهة، التي تقوم على الحتمية الاجتماعيّة والتّاريخيّة، تُقدم فيما يرى **زيما**، الدّليل على أن الأعمال والأجناس الأدبية تنشأ في الآداب المختلفة، بعيدة عن بعضها البعض دون أن تكون بينها أدنى علاقة أدبية"[3] كما رفض موقف الشكلانيين "اللذين أهملوا السؤال بكلمة لماذا"[4] في بحثهم عن التشابهات، وهو سؤال خاطئ في رأيه "لأنه أهمل لأسباب أيديولوجية، السؤال عن كلمة كيف التي لا تقل عن السؤال الماركسي بكلمة لماذا؟" وهو نفس السؤال الذي انشغل به المقارني **فيكتور جرمونسكي** الذي كان يهمّه التفسير التاريخي الاجتماعي، وقد

---

[1] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص39.

[2] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص39.

[3] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص41.

[4] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص40.

نوَّه **زيما** بجهوده الرّامية إلى" وضع نظرية اجتماعية للمقارنة الأدبية...فأظهر اهتمامه "بماذا"...عكس الشكلانيين الذين اهتموا بالسؤال كيف؟ في النصوص الأدبية"[1] كما يُثني على المقارني **ديونيز دوريشين** على ما بدأه من إقامة الجسور بين الأدب المقارن والعلوم الاجتماعية، ورغم اعتراض **زيما** على الأسس التي قامت عليها المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية، إلا أنه" يشير إلى إزالة الفارق المتصوَّر بين المدرستين اعتمادا على موافقة **روني إيتيامبل** وتلميذه **أدريان مارينو**...على حجج "ويلك" الجمالية والتغلب على محدودية المنهج الوضعي الفرنسي"[2] إن الهدف الذي يسعى **بيير زيما** إلى تحقيقه من وراء ربط العلاقة بين الأدب المقارن والعلوم الإنسانية، هو بناء نظريّة مقارنية ذات مرجعية اجتماعية ويركز **زيما** في بناء هذه النظرية على إرساء القواعد والأسس النظرية الخاصة بها، فتصبح مهمة الأدب المقارن كما ينظر إليها "المؤلف تتجلى في الكشف عن النظرية على المستوى القومي والعالمي"[3] ويرجع **بيير زيما** انعدام نظرية للأدب المقارن رغم مرور قرن من الزمان على نشأته في أوروبا وأمريكا، إلى عدم توصّله إلى إرساء نظرية يقوم عليها، وينطلق **بيير زيما** في مشروعه هذا من طرح سوسيولوجي، يجعل من الأدب المقارن علما من العلوم الاجتماعية "

---

[1] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص40.

[2] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص39.

[3] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص45.



المنارة للاستشارات

ومن هذا المنطلق لا بد أن يتعامل مع باقي العلوم الإنسانية الأخرى على رأسها علم الاجتماع وعلم الدلالة"[1] فيصبح متعلقا" بالأدوات النظرية المنهجية التي يستعملها الباحث في القيام بدراسة مقارنة"[2] ونستشف من كلامه هذا تركيزه على الجانب التطبيقي أكثر، على اعتبار أن الجانب النظري قد أخذ الجانب الأوفر من الاهتمام، لذلك اتجه إلى تحديد الأدوات المنهجية التي يجب أن يستقيد منها الأدب المقارن منها: "علم الاجتماع الأدبي، وعلم النفس الأدبي، والنظريات الدلالية والمنهجية واللّسانية والنصيّة في المقارنة الأدبية وإبراز سماتها"[3] ويكشف هذا النّص الطبيعة المتشابكة والمتداخلة لهذا المنهج، الذي يستثمر بعض العلوم والمناهج التي جاءت بها اللّسانيات، كعلم الدلالة، وعلم النّص" فالعجز عن الاستفادة من نظريات النقد الجديد، مَنَع من جعل الأدب المقارن ميدانا خصبا للدراسة "[4] كما أن الاعتماد على هذه الآليات المختلفة، يؤدي إلى مفاهيم جديدة، فما كان للأدب المقارن في القرن العشرين أن يتجاهل كل هذه المعطيات، ويبقى بعيدا عن التفاعل معها.

---

[1] دودو أبو العيد، مرجع سابق، ص36.

[2] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص34.

[3] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص34.

[4] دودو أبو العيد، المرجع نفسه، ص37.

## خاتمة:

إن الهدف الذي يسعى إليه الأدب المقارن في منظور **بيير زيما** لا يقتصر على إبراز الجانب المضموني في الأدب، بل لا بد من إظهار الأسس الأدبية والاجتماعية واللغوية لفترة تاريخية معينة، متجاوزا بذلك طروحات المدرسة الفرنسية، ومفاهيمها المقارنية التقليدية القائمة على التأثير والتأثر، وتعضيدها بمفاهيم المدرسة السوسيولوجية، التي دعا "بيير زيما" إلى ضرورة تواشجها مع الأدب المقارن، من أجل تجاوز أزمته المنهجية، وإرساء مفهوم تفاعلي للآداب العالمية على أساس الندية وليس على أساس التفاضل، فيصبح المحمول الثقافي الذي تتقاطع فيه للنصوص، من اهتمامات الأدب المقارن الجديدة، حيث تجاوز البحث عن التماثل بين الآداب، وبهذا بدأ انزياح الأدب المقارن نحو اللامقارنة خاصة بعد تحاقله مع العلوم الاجتماعية التي استفاد كثيرا من طرائقها .



المنارة للاستشارات

**المصادر والمراجع:**

1- الأحمد نهلة فيصل، التفاعل النصّي التناصية النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2010.

2- جلالي بومدين، النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، دار الحمراء، الجزائر، ط1، 2012.

درويش أحمد، نظرية الأدب المقارن، تجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002.

3- دودو أبو العيد، الأدب المقارن لبيتر.ف. تسيما، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع16، ديسمبر 2003، ص 40.

4- سليم حيولة، إشكالية المنهج في الدراسات الأدبية المقارنة، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2،ع 19، نوفمبر 2009.

5- سليم حيولة، من الأدب المقارن إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية، مجلة الآداب واللغات جامعة البليدة 2، دار التل للطباعة، الجزائر، ع/8، 2014.

6- سعيد بن أراق، الأدب المقارن في ظل تحليل الخطاب النقدي، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان، ط1، 2015.

7- شوفرال إيف، الأدب المقارن، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017.

8- صلاح السروى، الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، على الرابط:http://masreiat.com، بتاريخ: 19:13 11/16/2016.

9- الرويلي ميجان، البازغي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط5، 2007.

- فرانسيس كلودون، كارين حداد فولتنغ، الوجيز في الأدب المقارن، نظريات ومناهج المقاربة المقارنية، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة، 2002، الجزائر.

10- لحمداني حميد، خرماش محمد، وآخرون، النظرية الأدبية والمنهج النقدي، مخبر اللغة والأدب والتواصل، ط1، 2017.

11- العظمة نذير، فضاءات الأدب المقارن، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربيّة السّورية، (د ط) 2004.

12- ماريا ريف، استقبال العمل الأدبي من وجهة النظر الاجتماعية، الاختلافات والتشابهات،(تر) عبد القادر بوزيدة، مجلة معالم، الجزائر، ع5/ السداسي الثاني،2011.

13- هنري- باجو دانييل، الأدب العام والأدب المقارن، (تر) غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط) (د.ت).

14- وائل سيّد عبد الرحيم، تلقي البنوية في النقد الغربي، نقد السرديات نموذجا، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010.



المنارة للاستشارات

15- Pierre Brunel, Daniel-Henri Pageaux, Avant-propos, Revue de la littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck.

16- Daniel-Henri Pageaux , littérature comparee et comparaison, poetica.org/sflgc/biblio/comparaisons.htm. http://www Date de publication: 15/09/2005.

17-Jean-Louis Backès, Le spectre de plutarque, Revue de littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck ,2001,2.htm.: http://www.cairn.info